# تجارب إصلاح القرية في مصر

بقلم الدكتور أحمد حسين

مدير إدارة الفلاح بوزارة الشؤون الاجتماعية

---

لسنا نعني بإصلاح القرية إصلاح مبانيها وكفى بل نعني توفير النعمة والطمأنينة لأهلها ورفع مستواهم المادي والأدبي ، ولا شك أن القرية بمكانها والسكان بقريتهم ، لكل من هذين أثر في تكوين الآخر .

وأظنني في غنى عن تكرار الحديث في سوء حال القرية المصرية ، فما من أحد يجهل أن قرانا قد تقادمت عليها الأحقاب والقرون وهي مهملة متروكة على حالها التي هي أقرب ما تكون الى الفطرة وساكنوها يعانون من الجهل والفقر والمرض ما لا يدركه الوصف ، ومشكلاتها تتزايد وتتعقد وهي متشابكة مترابطة تحتاج معالجتها الى جهد شاق وصبر مستمر ووقت طويل .

ولقد بلغ من سوء حال القرى أن المصلح العظيم محمد علي الكبير خطر بباله لوفرة ما رأى في طريق الاصلاح من عقد أن يحرق جميع القرى المصرية ويعيد إنشاءها على طراز جديد سليم او لا أن مستشاريه استسهلوه ورجوه أن يعمد الى التريث والتدرج ، وها هي ذي قرانا لاتزال كما تركها محمد علي الكبير منذ أكثر من مائة عام ولم يزل عبء الاصلاح ثقيلا وعسيرا .

وإني مع ذلك كله لمتفائل ، اذ أن الهمم تتحرك من كل جانب لمعالجة أحوال القرية وساكنيها وها نحن أولاء نرى جهودا عملية كريمة تبذل من جانب الحكومة ومن جانب هيئات ذات نفوذ واحترام كالجمعية الزراعية الملكية والجمعية المصرية للدراسات الاجتماعية وغيرهما .

وأكبر ظني أن جميع من يشتغلون بالاصلاح قد ثبت في أذهانهم أن الداء المزمن لا يكفي لاستئصاله العلاج الوقتي أو الجزئي ، وأنه يعرض القائمين به لفشل يؤدي الى ضياع الجهود المضنية والنفقات الباهظة ووراء ذلك ما وراءه من تثبيط الهمم وفتورها عن المضي الى آخر الطريق . لذلك كانت أول مرحلة يجب أن يقطعها المصلح هي وضع سياسة الاصلاح ، وهذا ما تقدمت به الجمعية المصرية للدراسات الاجتماعية بالاشتراك مع وزارة الشؤون الاجتماعية .

ولقد كان في بال الجمعية أن تسير في محاولاتها لإصلاح القرية على أساس من البحث العلمي والتجربة العملية معا ، وأن تقصر تجاربها على قريتين في أول الأمر حتى اذا استكشفت في خطتها بعض الخطأ كان هذا الخطأ مقصورا على نواح قليلة فأمكن تداركه بسهولة ، ولا يكون

الأمر كذلك اذا عممنا التجربة فى العدد العظيم من الجهات فإننا يومئذ نستهدف لخطر الخطأ الشامل الذى يتعذر تلافيه و يكون هو مشكلة جديدة بجانب ما أمامنا من مشكلات .

سيقول قائل : أما شبعتم أبحاثا ودراسات؟ فنقول إن الدراسة مع التجربة العملية لاتزال ضرورية ، لأن هناك آراء سلم بها الكل وآمن بها الكل ثم جاءت الدراسات الأخيرة والتجارب العملية التى اقترنت بها فأثبتت خطأ ما أجمعنا عليه من قبل ، ولأضرب لذلك مثلين :

ألم تتفق كلمة الباحثين وفى مقدمتهم أصحاب مراكز عالية وثقات معدودون على أن الشاى الأسود من أضر المشروبات بصحة الفلاحين ومواردهم الاقتصادية وجاء فى تقارير رسمية وفى قرارات هيئات محترمة أن هذا الشاى الأسود هـــو أس مصائب الريف إلى درجة أن بعض المصلحين كان يرى تقديم مسألة الشاى الأسود على كل مسائل الريف ومشاكله ، وقال بعض الثقات إنه يهدم الصحة هدما ويستنفد أكثر من نصف دخل الفلاحين لأنهم يستهلكون منه مقادير هائلة ؟ وبعد ذلك كله أوضح التحليل والبحث العلمى الذى قامت به وزارة الصحة أن ضرره لا يزيد على ضرر أنواع الشاى الأخرى كما ثبت من الاحصاءات أن جميع أصناف الشاى بما فيها الأسود — لا يزيد ما تستهلكه مصر منها على ٨٠٠٠٠٠ جنيه فى السنة . تدخل فى ذلك العوائد الجمركية على حين أننا نستهلك من الدخان ما قيمته بعوائده الجمركية سبعة ملايين من الجنيهات أى تسعة أمثال ما ننفقه على الشاى بكل أنواعه . بل ثبت كذلك من الناحية الصحية أن الشاى الأسود المتكرر عليه أقل ضررا من سواه لأن هذا الشاى المتكرر النقع تخرج منه معظم المواد المؤثرة كالتنين والتانين فى العملية الأولى .

و بالطبع ليس المقصود من هذه المقارنة تشجيع الفلاحين على تناول الشاى الأسود فإننا نؤثر أن ينفق الفلاح دخله فى ضروريات الغذاء والملبس قبل أى نوع من الكماليات .

ومثال آخر مما تفتح الدراسة والتجربة فيه آفاقا جديدة ، ذلك أنه كان من المتفق عليه أن فصل ماشية الفلاح عنه وعن أولاده أمر مئوس منه وأنه لابد له من إسكان بهائمه معه رغم ما فى هذا الاشتراك من قذارة وهبوط بمستوى الفلاح الانسانى وكرامته وذلك تحشيته من سرقتها أو سرقة علفها أو من تسميمها أو حلب لبنها إذا كانت بعيدة عن البيت . لكن الدراسة المقرونة بالتجربة العملية أثبتت أن اقناع الفلاح بفصل ماشيته عنه ليس بالأمر المستحيل ، فقد كنت فى كوم أمبو منذ أكثر من عام وحضرت فى بلدة السبيل التابعة لتفتيش كوم أمبو تكوين مجلس للقرية . وكان من أوائل مهام هذا المجلس العناية بنظافة مساكن القرية وطرقها واستطاع الاخصائى الاجتماعى أن يقنعهم بالمنطق والمقارنات دون ضغط ولا تأثير بإنشاء حظائر منفصلة لإيواء المواشى و إطعامها . ولقد كنت ضعيف الأمل فى تحقيق هذا المشروع . ولكن حين رجعت إلى القرية بعد عام لم أجد بهيمة فى أى بيت فقد أقام الأهالى الحظائر على نفقتهم وصارت لكل أسرة حظائرها فى مجموعة واحدة ومفتاح

كل منها فى يد صاحبها . ولقد قام خفير لحراسة هذه الحظائر ورأيت الأهالى فرحين مسرورين بعملهم هذا و بما أدى اليه من نظافة بيوتهم وشوارع قريتهم . ولقد أنجزوا كميات من السماد البلدى علمت أن شركة كوم امبو تفاوضهم فى شرائها بأثمان تغطى تقريبا تكاليف إنشاء هذه الحظائر . ورأيت فى دائرة هذا التفتيش قرى أخرى كثيرة تتقدم إلى الشركة لإعطائها أرضا لإنشاء أمثال هذه الحظائر أسوة بقرية السبيل مع قرض صغير يسدد على أقساط . ولسنا نزعم أن من اليسير تعميم هذه التجربة فى جميع القرى . وإنما أردنا أن نبين أنها ليست بالأمر المستحيل ، ولقد ضربنا هذين المثلين لإيضاح فضل الدراسة المستمرة والتجربة العملية فى كشف الحقائق و إنارة السبيل .

* * *

على هدى الدراسة العلمية والتجارب العملية تسير الجمعية المصرية للدراسات الاجتماعية فى تجربتها التى اختارت لها قريتى المنايل التابعة لمركز شبين القناطر وشطانوف التابعة لمركز أشمون . والأولى لا يزيد عدد سكانها عن ١٧٠٠ نفس وهى محرومة من كل المرافق الضرورية ومن كل خدمة عامة وليس فيها حتى مكتب لتعليم الأطفال ، ومستواها الصحى هابط وهى من مناطق الملاريا . وأهلها رقيقو الحال إلا عددا من الملاك المتوسطين يعيشون بعيدا عنها أى فى العاصمة ، وكان فيها خلاف شديد على منصب العمدة . فهى بوفرة ما فيها من المشكلات والعلل ميدان صالح للتجارب الاصلاحية فى جميع نواحيها .

أما الثانية فأكثر سكانا — إذ يبلغون نحو أربعة آلاف — وأحسن حظا فى العمران . ففيها مدرسة ونقطة بوليس ومكتب صحة و جمعية تعاونية ، و بين أهلها عدد من المستنيرين . وهكذا اختارت الجمعية لتجاربها صنفين مختلفين من القرى المصرية لتكون دراساتها متنوعة .

و إذا كان العمل فى الجهتين متشابها فإنى أكتفى بالتحدث عن سير التجربة فى قرية المنايل .

تقوم تجربة الجمعية على أسس ثلاثة :

الأول — أن يتناول الاصلاح مختلف النواحى الاقتصادية والصحية والثقافية فى آن واحد ، لأن هذه النواحى مترابطة تؤثر كل منها فى الأخرى ولا سبيل إلى فصل بعضها عن البعض . إذ ليس من الخير أن نعلم الفلاح وأن نتركه فقيرا أو أن نرشده الى وسائل النظافة وهو عاجز عن ثمن الصابون أو أن نعالج مرضه ثم ندعه جاهلا لا يستطيع وقاية نفسه من عودة المرض اليه .

الثانى — أن يكون الاصلاح سهلا لا شذوذ فيه ولا خروج عن مألوف أهل القرية . وأن يكون قليل التكاليف ليسهل تطبيقه و يمكن تعميمه .

الثالث — أن يقتنع الفلاحون اقتناعا قلبيا بمزايا الاصلاح و بضرورته فيقبلوا على الأخذ به و يساهموا فيه .

على هدى هذه الأسس استطاعت الجمعية أن تصل فى قرية المنايل الى نتائج تبشر بالخير الكثير .

فأما الأمكنة التى خصصت لأعمال الاصلاح فهى :

أولا — مركز للاجتماع، وهو منزل عادى من منازل القرية أجريت فيه اصلاحات وترميمات وعنى بنظافته ونظامه وأجرته الشهرية جنيهان .

ثانيا — دار لرعاية الأمومة والطفولة، وهى كذلك من منازل القرية العادية وقد تناولتها الجمعية بالتهذيب والإصلاح .

ثالثا — مدرسة قروية نموذجية أقامها مجلس المديرية حديثا على نفقته وان كان الأصل أن تكون المدرسة فى مقر المركز الاجتماعى بحيث يكون مدرسة بالنهار ومركزا اجتماعيا فى المساء.

أما الموظفون القائمون بالعمل فهم :

أولا — إخصائى اجتماعى من خريجى مدرسة الخدمة الاجتماعية .

ثانيا — زائرة صحية من خريجات مستشفى قصر العينى معينة من قبل وزارة الشؤون الاجتماعية .

وقد استخدمنا لمساعدة هذه الزائرة الصحية دايتين من دايات القرية القديمات حتى لا نعطل أرزاق هؤلاء الدايات فنحملهن على محاربة الزائرة الصحية وحتى يكون فى اتصالهن بالزائرة تهذيب لهن وتعويد على الطرق الحديثة للتوليد والتمريض والنظافة .

وعدا هاتين الدايتين فتيات من أهل القرية أرسلناهن الى مركز رعاية الطفل ليدرسن فى مدى ستة أشهر برنامجا للتوليد فيعدن بعد ذلك الى القرية للخدمة فيها بجانب الزائرة وفى ذلك كله رفع للمستوى الاجتماعى فى القرية بمعاونة أهلها أنفسهم .

وأول خطوة فى العمل هى الدراسة والبحث ، وهذه الخطوة تشمل :

أولا — دراسة حالة القرية من مختلف نواحيها .

ثانيا — القيام ببحث اجتماعى شامل عن حالة كل أسرة من حيث السكنى والدخل والثقافة والتغذية والملابس والطباع والعادات ... الخ .

ثالثا — القيام بفحص طبى كامل لكل شخص فى القرية ، وهذا الفحص يشمل كل أجزاء جسمه كما يشمل المرضى والأصحاء .

وهذا البحث وهذا الفحص يجريان لأول مرة فى مصر وستكون نتائجهما ذات قيمة علمية للمشتغلين بخدمة الفلاح وقريته .

والمركز الاجتماعى هو مقر للاجتماع والحديث وسماع بعض المحاضرات وبه نواة لمكتبة قروية وجهاز راديو يستمع إليه المجتمعون، وقد خصص للسيدات أحد أيام الأسبوع للحضور والاستماع .

وأذكر بهذه المناسبة أن الإخصائى الاجتماعى والزائرة الصحية قد ظلا يسمعان الإذاعة مع الأهالى نحو شهر قبين لما أن هؤلاء الفلاحين لا يكادون يفهمون شيئا مما يذاع باللغة العربية الفصحى من محاضرات أو أحاديث رسمية أو غير رسمية وأن كل ما يسرهم و يسليهم بعد القرآن والأغانى الريفية هو أحاديث الأطفال يصغون اليها ثم يتناقلونها فى مجالسهم وفى بيوتهم .

أما دار رعاية الأم والطفولة فتمضى بالحوامل والمواليد وتقوم الزائرة بالتوليد فى مقرها أو فى البيوت ، وقد اكتسبت بحسن عملها ووفرة اهتمامها ثقة القرويات فلم تعد حالة من حالات الولادة تتم إلا باشراف الدار وعنايتها .

وتقوم الزائرة الصحية عدا ذلك بعمليات التطعيم . كما تقوم بعمليات الختان بالأسلوب الطبى السليم لا بالطرق العتيقة الخطرة . وفى بعض الأحيان تحول الزائرة الصحية بعض عمليات العلاج إلى المستشفيات حين لا تكفى الوسائل العادية وهى توالى بزيارتها وعنايتها من يدخلن المستشفى حتى يتم لهن الشفاء .

وكذلك تمر بالمنازل لمراقبة نظافتها و إعطاء التعاليم الصحية وتنوير أذهان القرويات وتعليمهن بعض الأشغال اليدوية .

وقد كان لكل هذا أثره المحمود عند القرويات والأهالى جميعا فصارت الزائرة الصحية فى المكان الرفيع من نفوسهم وحبهم ، وصاروا يأنسون اليها الى حد أن أسرة كانت تحتفل بزفاف احدى بناتها أجلت العرس حتى يسمح وقت الزائرة الصحية بالحضور لتجميل العروس قبل الزفاف ، وتلك نتيجة سارة كل السرور اذا علما أن الزائرة الصحية كانت فى أول الأمر تلتمس مختلف الوسائل لدخول البيوت والاتصال بنسائها فالآن تهددهن بالكف عن زيارتهن اذا لم يراعين الدقة فى تنظيف بيوتهن وتنظيمها .

وقد حولت احدى غرف دار الأمومة الى "حمام" فيه خمسة ادشاش تستمد الماء من صهريج صغير يملأ بطلمبة يدوية بسيطة . وقد خصص يوم فى الأسبوع لاستحمام النساء وآخر للأولاد الى سن الثانية عشرة وثالث للبنات حيث يصرف للجميع الصابون والمناشف النظيفة وتسخن المياه فى صفائح بوابورات الغاز العادية .

وقد ساعد هذا النظام على نشر النظافة خصوصا فى فصل الشتاء. ولا تزيد تكاليف هذه العملية على ستين قرشا فى الشهر مع أن المترددين على الحمام لا يقلون عن المائة فى الأسبوع .

وقد تناولت العناية الصحية بالقرية دق عدد من الطلمبات بعضها يستعمل للمرة الأولى فى مصر وبعضها ثبت عدم صلاحيته فلم تحل هذه النتيجة السلبية من فائدة لأنها ستوفر على القائمين بالتجارب الاصلاحية استعمال أداة غير صالحة .

ومما يبعث فى نفسى مزيد الاطمئنان إلى اقتناع الأهالى بأعمال الاصلاح أننا تعمدنا إهمال اصلاح إحدى هذه الطلمبات وتركناها عاطلة أياما فاكتئب الأهالى من تلقاء أنفسهم

وأصلحوها على نفقتهم ليشربوا ماء نقيا، وقد كنا أول الأمر نحتاج إلى مجهود لإقناعهم بألا يشربوا سوى الماء النقى ، بل لقد تقدم الينا الأهالى أخيرا راجين أن نعاونهم على دق طلمبة جديدة اكتتبوا بنصف تكاليفها . وعدا ذلك فقد قاموا بردم بركة تبلغ مساحتها نحو فدان ولم نبذل لهم إلا اليسير من المساعدة كتأجير حمير واستخدام سيارة نقل تابعة لمجلس المديرية .

* * *

أما من الناحية الاقتصادية فان هناك عملا على زيادة موارد القرية بإدخال بعض الصناعات الزراعية والمنزلية وتهذيب القائم منها . ومما يساعد على ذلك أن الفلاح ليس مشغولا كل أيامه، وأن المرأة القروية أوسع وقتا من سواها فليس منزلها من السعة أو اليسار بحيث يتطلب زمنا طويلا فى التنظيف أو تنظيم الأثاث أو خياطة الملابس أو طهى الطعام .

ولقد استعنا بمندوب من وزارة الزراعة لتحسين انتاج العسل فى البلدة إذ أن من صناعتها القديمة تربية النحل فى الخلايا البلدية فجلبت لهم بعض المصافى وتحسن العسل فعلا وصار يخرج نظيفا صالحا للسوق، وأصبح الرطل منه يباع بعشرين مليما وخمسة وعشرين مليما بدلا من خمسة عشر دون أن تزيد تكاليف إنتاجه شيئا .

ولأن فى البلدة وحولها كثيرا من أشجار التوت اتفقنا مع وزارة الزراعة على معاونة الأهالى على تربية دود القز واستخراج الخيوط الحريرية من شرانقها .

وكذلك نجحنا فى اقناع الأهالى بالاكتتاب لإنشاء جمعية تعاونية تخدم مختلف مرافقها الاقتصادية والزراعية .

وعنينا بتشجيع صناعة النسيج على الأنوال اليدوية، واستطعنا بمعاونة موظفة من وزارة التجارة والصناعة تعليم بعض البنات أشغال الإبرة والصوف لإنتاج بعض ما يحتاج اليه الريفيون كالطاقية والشال وقطعنا فى هذا مرحلة طيبة ، فان إحدى البنات اللائى تعلمن هذه الأشغال أخذت تلقنها لسواها من فتيات القرية ، وتقدر هذه الموظفة أن الفتاة النشيطة ستستطيع أن تكتسب فى اليوم أربعة قروش أو خمسة .

أما من الناحية الثقافية فللمدرسة التى أقامها مجلس المديرية منهج خاص فريد فى بابه يعد الأطفال للبيئة الريفية ويجعلهم فى هذا المجتمع أعضاء سعداء نافعين ويتناول العناية بصحتهم ونظافتهم كما تعنى المدرسة بتلقينهم بعض الصناعات الزراعية والمنزلية كتربية الدواجن وصناعات الألبان وغزل الصوف وغير ذلك . وقد ألحق بها حقل صغير للدراسات الزراعية وأكبر ظنى أن هذه التجربة التعليمية ستكون ذات فائدة للعنيين بإصلاح نظم التعليم الالزامى.

* * *

وأما من الناحية الاجتماعية بشكل عام فهناك عناية خاصة بالصغار، إذ تنظم لهم الحفلات رياضية ورحلات الى القاهرة لزيارة معالمها الهامة كحديقة الحيوان والمساجد الشهيرة. وتستغل

وسائل الترغيب هذه فى حملهم على المواظبة على المدرسة والمداومة على العناية بنظافة أجسامهم ومنازلهم .

ولم تفتنا ناحية الاحسان فقد تكونت من الأهالى جمعية تجمع الزكاة وتوزعها على مستحقيها فى جو من التستر حتى لاتجرح كرامتهم ، وقد وزعت ملابس العيد على نحو ستين طفلا ما كانوا يستطيعون أن يلعبوا مع إخوانهم أو يشاركوهم فى فرحة العيد ، وكانت هذه الفرصة مناسبة لتعليم بنات القرية الخياطة . وكذلك وزع اللحم على ٤٧ أسرة فى عيد الأضحى فظفرت كل أسرة برطلين .

وعدا هذا ، وعدا ما يقوم به الاخصائى الاجتماعى من مراقبة نظافة البيوت فى الخارج بجانب رقابة الزائرة الصحية على البيوت فى الداخل ، وأعنى بالمراقبة الخارجية نظافة الشوارع والمسالك وخلوها من الأتربة والاقذار ، عدا هـذا كله يقوم الاخصائى الاجتماعى بمعونة الاهالى بمعالجة حالات فردية هامة كحسم خلافات عائليـة أو زوجية أو إيجاد عمل لأحد أفراد أسرة لا عائل لها .

وكذلك يقوم الاخصائى الاجتماعى بخدمات أخرى كالمساعدة فى تسوية دين لدى أحد البنوك أو صرف مبالغ مستحقة عن الحكومة أو غير ذلك .

هكذا تسير التجربة سيرا موفقا فى هدوء وتؤدة وتدرج .

ومن دلائل النجاح أن مسيو فانسينو رئيس مجلس ادارة البنك العقارى المصرى وأحد رعاة الجمعية المصرية للدراسات الاجتماعية حينما اطلع على التقرير السنوى عن هـــذه التجربة تفضل فعرض على مجلس الادارة أن يقوم البنك بالاتفاق على تجربة ثالثة فى قرية جديدة . وقد قرر البنك أن يترك لوزارة الشؤون الاجتماعية وللجمعية اختيار قرية لهذه التجربة الجديدة وخصص لهذا الغرض ستمائة جنيه سنويا الى خمس سنوات مقبلة وإنى أسجل بجانبه وللبنك هذا الفضل المشكور وهذا التقدير الكريم .

كما أسجل فضل الاخلاص فى العمل والتفانى فى الخدمة للإخصائى الاجتماعى والزائرة الصحية فإنهما بامتزاجهما بالأهالى وصدقهما فى نصحهم وإرشادهم جعلا أعمال الاصلاح وخططه سائغة لديهم محببة الى نفوسهم .

ولسنا ندعى أن التجربة قد ألمت بكل مشاكل القرية ، فهى من الكثرة والقدم بحيث تحتاج الى الوقت الطويل والتدرج المستمر ، لكنا نقول إننا قطعنا مرحلة فى طريق الاصلاح تشجعنا على المضى فيه وتناول مختلف نواحيه وما توفيقنا الا بالله ؛

أحمد حسين